خطبة صلاة الجمعة 17/10/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة (28)– اللسان الجارح)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذا أَخْطَأَ خطيئَة، نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ، فإذا هو نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وتابَ، صُقِلَ قلبُه، وإنْ عادَ، زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذكره الله** ﴿كلا بل رانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]» [الترمذي].

هذه هي الخطبةُ الثامنة والعشرون في سلسلة: (**أخطاء شائعة**).

هدفُ السلسلة السعيُ لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً, وشعارها: (أسرتي سكني ومسؤوليتي)، وخطأً في معاملاتنا المالية مرة أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم يمكن إدراجها في النوعين، وعنوانها: (**اللسان الجارح**)

-تُغضِبُه زوجُه فيتفوَّهُ بألفاظٍ جارحةٍ مستهزئاً بأهلها شاتماً لها داعياً بالويل والثبور على نفسه؛ لأنه تزوجها!. ويعود بعد أيام معتذراً عما بدر منه طالباً ودَّها وقربها! (اللسان الجارح).

-يزعجُها ابنُها فتدعو اللهَ أن يخلصها منه، وأن يغضبَ عليه وأن.. وأن.. وأن..! (اللسان الجارح)

-له سهرةٌ في كل خميس مع أصدقائه, يمضغون فيها لحومَ زملائهم، ويتبادلون طرائفَ يندى لها الجبين, ويتهامسون بقصصٍ فيها من البهتان والكذبِ وهتكِ الأعراضِ ما تبعدهم عن الفضيلةِ والدين بُعْدَ المشرقِ عن المغرب. (اللسان الجارح)

-عندما انزعجَتْ من زوجها مضَتْ غضبى إلى بيتِ أهلها، وراحتْ تنعَتُ زوجَها بكلماتٍ نابية وعباراتٍ دنيَّةٍ! بل إنها اتصلَتْ بزملائه لتصفَهُ بأبشع الأوصاف وأسوئها؛ ومما يزيدُ العجبَ أنها عادتْ إليه بعد أسابيع تمازحُه وتلاطفُه وتبثُّه الشوق والحب! (اللسان الجارح)

-في زحامِ السيرِ وتباطؤِ الخُطا وحرارةِ شمس الظهيرة تتجاوزُ سيارةٌ سيارةً لم تمضِ مسرعةً عند ضياء اللون الأخضر، ويلتفتُ سائقُها إلى سائقِها ليصفَهُ بالعمى والصمم وكلماتٍ أسوأ! (اللسان الجارح)

-عندما تخاصَمَ الشريكان وقرَّرا إنهاءَ العلاقة التجارية التي دامتْ بينهما عشرين سنةً، راح كلٌّ منهما يسلُقُ صاحبه بلسانٍ حادٍّ وكلماتٍ موجعة! (اللسان الجارح)

أيها الإخوة:

اللسانُ الجارحُ مرَضٌ إيمانيٌّ وخُلُقي ومشكلةٌ اجتماعيةٌ تُلقي آثارَها السيئةَ على علاقاتنا الأسرية وأسواقنا التجارية، واللسانُ الجارحُ يقضمُ الحسنات صعوداً، ويمضغُ الصالحات نزولاً؛ فلتحذر عدوَّك مرةً ولْتحذَرْ لسانَك ألفَ مرة.

قال تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: 24]

بينما قال في وصف أهل النار: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38]

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»** [مسند الإمام أحمد]

وقال صلى الله عليه وسلم مخاطباً سيدنا معاذ بن جبل: **«كُفَّ عليك هذا»** وأشار إلى لسانه، قلتُ: يا نبيَّ الله، وإنَّا لمؤاخذونَ بما نتكلم به؟ قال: **«ثَكِلتْك أمُّك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم- أو قال: على مَناخِرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم؟»**. [أخرجه الترمذي]

قال ابن الأثير الجزري في شرح الحديث: (حصائدُ ألسنتهم) الحصائد: جمع حصيدة، وهي ما يُحصَد من الزرع، شبَّه اللسان وما يُقتطعُ به من القول بحدّ المنجلِ وما يُقطَعُ به من النبات).

أبو عبد الله محمد بن علي ابن الأزرق الغرناطي من وفيات القرن التاسع الهجري، فقيهٌ قاضٍ مفكِّرٌ إمامٌ عالم اجتماع، صنَّفَ كتاباً سماهُ (بدائعُ السَّلك في طبائع الملك) ومما وجدتُهُ في الكتاب أنه حاول أن يُحصي جروحَ اللسان، أعني المصائب التي تنزل بصاحب اللسان الجارح، أو قُل: أمراضُ اللسان الخُلُقية والإيمانية.

فهل تستطيعون تقديرَ عدد أمراض اللسان الخُلُقية؟!

لقد عد منها ابن الأزرق في كتابه اثنين ومائةَ مرضٍ، يسببها اللسان الجارح لصاحبه، وها أنا أسرد لكم ثلاثين منها لأحيلكم إلى الكتاب لتقرؤوا فيه تتمتها:

(الْكَذِب، الغيبة، النميمة، الْيَمين الْغمُوس، الْقَذْف، سبّ الْوَالِدين، فضيحةُ الْمُسلم، اللَّعْن، الْهَمْز، اللمز، الْفجْر، الطعْن، الْفُحْش، السّعَايَة، أَن يُقَال لمُسلم يَا كَافِر، سبّ الدَّهْر، سبّ الْمُسلم، الْجِدَال، الْخُصُومَة، المزاح الْمَحْظُور، السخرية، رمي البريء بالذنب، الْجَهْر بالسوء من القول، التحدث بِكُل مَا سمع، سبّ الدّين، التنابز بِالْأَلْقَابِ، الْخَوْض فِيمَا شجر بَين السّلف الصَّالح، استطالة الرجل فِي عرض أَخِيه، تَحْرِيف الْكَلم عَن موَاضعه، الدُّعَاء على النَّفس وَالْولد، إفشاء السِّرّ بَين الزَّوْجَيْنِ...).

من هنا -أيها الإخوة- نستطيع أن نفهم الحديثَ الذي أخرجه الإمامُ الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً: **«إذا أصبح ابنُ آدم، فإنَّ الأعضاء كُلَّها تكفر اللِّسان، فتقول: اتَّقِ الله فينا، فإنما نحن بك، إنِ استقمتَ استقمنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعوجَجْنا»** [أحمد والترمذي]

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا نبي الله، حدِّثني بأمرٍ أعتصم به، قال: **«قل: ربي الله، ثم استقم»**، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: **«هذا»** [أحمد والترمذي]

قال الإمام النووي في الأذكار:

بلغنا أنَّ قسَّ بنَ ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدُهما لصاحبه: كم وجدتَ في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيتُه ثمانيةُ آلاف عيب، ووجدتُ خصلةً إن استعملتَها سترتَ العيوبَ كلَّها، قال: ما هي: قال: حفظُ اللسان..

وروينا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما من شيءٍ أحقُّ بطول السجنِ من اللسان.

وقال غيرُه: مَثَلُ اللسان مَثَلُ السَّبُع إن لم تُوثقْه عَدَا عليك.

ومما أنشدوه في هذا الباب:

احفــظْ لســـانَك أيُّهـــا الإنســـانُ لا يلـــــدغنَّك إنـــــه ثُعبـــــانُ
كم في المقـــابرِ من قتيـــلِ لســـانِه كـــانَ هـــابَ لقـــاءَه الشـــجعان

أيها الإخوة، أيها الشباب، أيها الرجال، أيتها الزوجات والأمهات والأخوات:

مطلوبٌ من كل واحدٍ فينا أن يضبطَ لسانَه حتى لا يكون جارحاً مؤذياً خارجاً عن تعاليم الشريعة.

ومطلوبٌ من كلِّ كبيرٍ أن يكون كبيراً بسلطانه على لسانه، فقد قيل لرجل: بِمَ سادكُم الأحنف، فوالله ما كان بأكبركم سناً ولا بأكثركم مالاً؟ قال: بسلطانه على لسانه.

إنه من غيرِ المقبول عرفاً، ولا المرضيّ شرعاً أن ترى المرأةَ تعتني بمظهرها الخارجي ليكون حسناً، وليستْ تعتني بكلامها ليكونَ حسناً.

وإنه من غير المقبولِ عرفاً، ولا المرضي شرعاً أن ترى الشاب يجتهد ليُحَصِّل أعلى الدرجاتِ العلمية، وليس يجتهدُ ليُحصِّل أدنى درجاتِ ضبط النفس عند الغضب.

وإنه من غير المقبولِ عُرفاً، ولا المرضي شرعاً أن ترى الرجلَ وجيهاً في منصبه ثريَّاً في ثوبه، وتراه وضيعا في كلامه فقيراً في آدابه.

وقد رأوا رجلاً يرتدي ثوباً جميلاً، ويتكلم كلاماً قبيحاً، فقالوا له: عذراً، إما أن تتكلم مثل ما تلبس، أو أن تلبس مثل ما تتكلم.

إنَّ المسلمَ كالنحلة لا يُدخِلُ إلا طيباً، ولا يَخرج منه إلا طيبٌ، ولا يقفُ إلا على طيبٍ، إنَّ المسلمَ كالنخلة إن كلمتَهُ نفعَكَ، وإن شاركتَه نفعك، وإنْ شاورْته نفعَك، كلامُه ذكرٌ، وصمتُه فِكرٌ.

إنَّ المسلمَ بشرٌ يغضب كما يغضب البشرُ ويحزن كما يحزنون، لكنَّه يغضبُ فلا يقولُ إلا الحقَّ، ويحزن فلا يخرج منه إلا الصواب.

ذُكِر أن سيدنا الحسين بن علي بن الحسين رضي الله عنهم كان إن شاتمه أحدٌ قال له: إن كنتُ كما تقولُ فعسى اللهُ أن يغفرَ لي، وإنْ لم أكنْ كما تقولُ فعسى اللهُ أن يغفرَ لك.

ووردَ أنَّ الربيعَ الزرعي ما سُمع منه كلمةُ فحشٍ طيلةَ عشرين عاماً.

وذكروا أنَّ عمرَ بنَ عبد العزيز لما ولي خرج ليلةً ومعه فتاهُ، فدخل المسجدَ فمرَّ في الظلمة برجل فعثرَ به، فرفع رأسه إليه وقال: أمجنون أنت؟ قال عمر: لا، فهمَّ فتاهُ بضرب الرجل، فقال له عمر: صه، إنما سألني وأجبتُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 ، 71]

أيها الإخوة:

ختاماً، كيف يسيطرُ المرءُ على لسانه حتى لا يتكلم كلاماً جارحاً، لا في بيته، ولا في سوقه التجاري؟.

يعينك على ذلك أربعة أمور:

أولها- مجالسُ العلم؛ لأنها تذكّرك إذا نسيتَ، وتعلمُكَ إن جهلْتَ.

ثانيها- كثرةُ ذكر الله تعالى؛ حتى تستشعرَ أنَّ الله تعالى معك يسمع ويرى.

ثالثها- صحبةُ الصالحين؛ لتتطبع بحسن أقوالهم وجميل أحاديثهم.

رابعها الأخير- مجاهدةُ النفس بتدريبها على لزوم الصمتِ وقلة الكلام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمتْ**» [البخاري ومسلم].

نسألُ الله تعالى أن يعينَنا على تصحيحِ أقوالنا وأفعالنا حتى يُعجِّلَ لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين